ثلاثة ت يات أساسية

الحديث عن التحديات يعني الحديث عن التقدم. والرضا بالواقع وتجاهل الصعوبات يعني شيئًا يقترب من الموت. وعلى مدار التاريخ كانت الأمم تتخذ من الحديث عن الصعوبات والعقوبات أداة للتحريض على تحسين الأحوال ودفع الأمور في اتجاه الأفضل. ولو أننا عدنا قرونًا إلى الوراء، وجُلْنا العالم بطوله وعرضه؛ لما رأينا أهل أي زمان راضين عن زمانهم؛ فتطلعات الإنسان دائمًا تتجاوز إمكاناته، ولا يحدث شيء من الشعور بالرضا إلا حين تقارن أمة من الأمم أحوالها في جانب من جوانبها بأحوال أمة أو أمم أخرى؛ ولذا فالشعور بالرضا هو دائمًا نسبي.

وإذا أردنا تفصيل القول في كل المشكلات التي تعاني منها التربية في البيوت والمدارس فربما احتجنا إلى مجلد أو مجلدات، وقد كُتب -فعلاً- الكثير، وما زلنا بحاجة إلى الكثير. ولذا فإنني أوثر هنا أن أتحدث عن بعض التحديات الأساسية التي ينطوي كل واحد منها على تشعيبات وتفصيلات كثيرة، لا أريد الخوض في غمارها. ولعلي أجمل القول في ثلاثة من تلك التحديات تحت العناوين الفرعية الآتية:

حضارة غير مواتية:

ليست أمة الإسلام هي التي تصنع الحضارة اليوم، وليست هي التي تصوغ لأمم الأرض شروط العيش الكريم، ولا معايير التقدم والارتقاء. إنها مشغولة بمشكلاتها الخاصة، ومرتبكة في التعامل مع الوافدات الأجنبية التي تفد إليها من كل مكان. وهذا يعني أن جزءًا من مشكلات التربية والتعليم يعود إلى أن الفضاء الحضاري الذي يكتنف كل أنشطتنا التربوية؛ هو فضاء غير ملائم وغير منسجم مع جوهر الرسالة التربوية التي نقوم بإيصالها إلى الأجيال الجديدة. لو أن

مؤسسة كبيرة خططت لإنتاج ثقافة مدمرة ومفسدة لتربية الطفل المعاصر؛ لما استطاعت أن تفعل أسوأ مما فعلته الحضارة الغربية، فهي بنزعتها العلمانية الإلحادية تدفع الناس نحو فقد أي شيء ثابت يمكن أن يستندوا إليه في الشدائد، أو يستلهموه، ويسترشدوا به في الرخاء.

وهي إلى جانب هذا تشيع ثقافة تساوي على نحو متزايد بين الثروة المادية والقيمة الشخصية، فالذي لا يملك شيئًا لا يساوي شيئًا، والذي يملك الكثير يساوي الكثير! وبما أن الوظيفة تحتاج إلى شهادة، والشهادة تحتاج إلى نجاح، فقد حل السعي لدى طلاب الثانويات والجامعات إلى الحصول على النجاح محل الاهتمام الأصيل بالعلم؛ مما أدى إلى صبغ النشاط العلمي بالصبغة التجارية في كثير من الأحيان، وصار كثير من الطلاب لا يبذل في سبيل العلم إلا على مقدار ما يؤمِّن له النجاح! وتفريعًا على هذه النظرة المادية صار كثير من الشباب يعتقد أن (السعادة) شيء يمكن الحصول عليه من خلال المال، وهذا دفع كثيرًا من الشباب إلى إدمان المخدرات، كما دفع قسمًا آخر منهم إلى الاهتمام المنقطع النظير بالمظهر والشكل، ومحاولة الظهور بالانتماء إلى شريحة أعلى من الشريحة الاجتماعية الحقيقية التي ينتمي إليها. إن مضمون الرسالة التي يتلقاها الشباب اليوم يقول: اسرح وامرح واضحك واستمتع ما استطعت ولا تأبه كثيرًا للعواقب!

وكان كل ذلك على حساب الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى السعادة على أنها شيء يتفجر في داخل الإنسان نتيجة انسجام سلوكه مع معتقده، ونتيجة تحرره من ربقة المادة واستعباد الشهوات.

إن الغرب ينشر ثقافة إباحية جعلت كل شيء مكشوفًا أمام الأطفال، وصار الفتيان والفتيات يفقدون براءة الطفولة في وقت مبكر جدًّا؛ مما جعلهم

يعيشون تحت وطأة مشاعر جنسية ليسوا مؤهلين للتعامل معها والسيطرة عليها. أما الأفلام والروايات (البوليسية) فإنها تُدخل الأطفال في وقت مبكر في عالم الجريمة والعنف، وتجعلهم يعتادون على مشاهدة حوادث القتل والسطو والاغتصاب. وصار كثير منهم يقلد ما يراه ويمارسه، بل يطوره. وحين استدبر الغرب (الوحي) وقطع صلته بجوهر رسالات السماء سيطرت عليه روح العدمية واليأس، وصار كثير من أبنائه يشعر بانسداد الآفاق وباليتم الروحي. ومع كثرة المحاولات التي بذلت لإشاعة روح التفاؤل إلا أن الناس هناك تشربوا روح (نيتشه)، وصاروا يرون كثيرًا من الأشياء مجردًا من أي معنى. وباتت الأجيال الجديدة في الغرب تبحث عن أهداف كبيرة تسوِّغ كل هذا النشاط المحموم الذي عليهم أن يقوموا به. وهذه الأوبئة بدأت تتسلل إلى أذهان جيلنا الجديد!

التغيرات السريعة التي تجتاح الحياة في كل مجالاتها ومستوياتها جعلت كثيرًا من الشباب يقومون بمحاولات دفاعية ضدها، وأهم تلك المحاولات التهكم والاستهزاء والاستخفاف بكثير من الأشياء التي كانت تحترمها الأجيال السابقة. إن الرجل المتهكم يسخر من جميع المثل العليا والأهداف السامية. وهو في طريقه إلى أن يفقد إيمانه بكل شيء حتى ثقته بنفسه؛ وذلك يعني الصيرورة إلى التلاشي الكامل! وترتب على موقف الاستخفاف ذاك عدم الشعور بالمسؤولية تجاه كل الأخطاء والجرائم التي يرتكبها؛ وما ذاك إلا لأنه لم يعد يرى أي شكل من أشكال الخير أو الفضيلة في نفسه أو لدى الآخرين. هذا كله ناتج من أن التغيرات السريعة أخذت تجرد الناشئة من القيم القديمة؛ في الوقت الذي لم يتوفر لديهم أي معين لاكتساب قيم حديثة؛ يتم على أساسها تصريف شؤون الحياة من جديد. ومن وجه آخر فإن التغيرات السريعة غرست في أعماق الناشئة مفهومات التقادم والزوال؛ إذ ما دام كل شيء يتبدل ويختفي ويزول ـ وصناعة

الحاسوب تقدم نموذجًا على ذلك- فما معنى الإصرار على المحافظة على القيم والمبادئ القديمة؟!

إن المرء من دون قيم يسعى إلى تحقيقها في حياته تلفه مشاعر الاغتراب وهو يعيش في وطنه وبين أهله؛ حيث تتحول الأشياء التي ينتجها الإنسان كي تكون في خدمته إلى أشياء تتحداه، وتهدد وجوده. بل إن (أريك فروم) يرى أن عطاءات الإنسان تتحول في حالة الاغتراب إلى أصنام يعبدها، وإلى أوثان يسجد لها؛ فالوثنية في نظره تشكل جوهر الاغتراب.

إن كل ذلك يحدث بسبب الاستثمار المكثف في التقنية، وبسبب الإعراض عن الاستثمار في المجالات الأخلاقية والاجتماعية. وما دامت الشركات الكبرى التي لا تعرف سوى جني المزيد من الأرباح - قد تولت توجيه الاهتمامات الثقافية والإعلامية؛ فإن الأمل في تغيير حاسم سيظل ضعيفًا!

هذه الوضعية المخيفة تشكل البيئة الثقافية والحضارية التي يحيا فيها الإنسان في الدول الصناعية الكبرى. وقد أخذت رياح الغرب تعصف بخيامنا، وتسمم جذور الحياة الفردية والاجتماعية في العالم الإسلامي. وصار على البيوت والمدارس أن تتجاوز مسألة تلقين الأجيال الجديدة القيم والمبادئ الإسلامية؛ إلى إقناعهم بها وإزالة الشُّبه والالتباسات التي تثار حولها؛ أي أن المشكلة تتحول تدريجيًّا من أن تكون تربوية إلى أن تصبح فكرية معرفية؛ يتجسد فيها نوع من الصراع بين الناشئة وذويهم. وهذا يشكل تحديًا يصعب التغلب عليه في كل حين!

إذا تجاوزنا التحديات الوافدة التي تعرقل الأعمال التربوية إلى النظر في مشكلاتنا الداخلية، وجدنا أننا نعاني من قصور في المفهومات، وضعف في

الإمكانات في الكثير من مجالات الحياة. ولنقتصر هنا على مجالين مهمين منها؛ هما المجال العلمي المعرفي، والمجال الاقتصادي المعيشي.

أما في المجال الأول وهو المجال العلمي المعرفي:

فإن الوضع العام الذي تعيشه معظم الدول الإسلامية؛ لا يشجع ولا يساعد الآباء والمربين على تكوين جيل يقدِّر العلم، ويتخذ منه وسيلته الأولى في التقدم والغلبة الحضارية. بالإضافة إلى ما ذكرناه قبل[1] من عدم وجود رغبة حقيقية في طلب العلم لدى معظم الشباب، وعدم وجود تقاليد ثقافية تعلي من شأن المعرفة، وهناك ظروف ومعطيات صعبة تعرقل انطلاقة المربين الواعين والغيورين.

- فمتوسط الأمية في العالم الإسلامي يزيد على40 ٪، ومتوسط القراءة للفرد في الوطن العربي هو ست دقائق في اليوم، وهذا يشكل سدس الوقت الذي ينفقه الإنسان في الغرب من أجل القراءة.
- وفي حين يصدر لكل (15) ألف مواطن في الدول المتقدمة كتاب سنويًا؛ يصدر لكل ربع مليون مواطن عربي كتاب.
- وتنفق الدول العربية على تعليم الفرد ما متوسطه (200) دولار سنويًا؛ وتنفق الدول الصناعية على تعليمه (6500) دولار، وينفق اليهود في فلسطين المحتلة (5000) دولار.
- وتنفق الدول العربية على البحث العلمي (2) بالألف من الناتج المحلي؛ أي سُبع المتوسط العالمي الذي يفترض أن يكون 1.4 ٪ في حين يتجاوز اليهود في فلسطين المتوسط العالمي، فيصل إنفاقهم إلى 2 ٪، أي

(1) انظر ما قلناه تحت عنوان (جيل يعرف).

عشرة أمثال ما تنفقه الدول العربية.

- وتخصص الجامعات العربية ما متوسطه 1 ٪ فقط من ميزانياتها للبحث العلمي؛ في حين أن الجامعات الأمريكية تنفق عليه نحوًا من 40 ٪ من ميزانياتها.
- وقد ذَكَرتْ إحدى الدراسات أن ما تنشره جامعة (هارفارد) من بحوث سنويًّا يعادل ما تنشره الجامعات العربية مجتمعة.
- ونتيجة لهذا فإن الدول الصناعية تتحكم بحوالي 97 ٪ من براءات الاختراع التي تسجل سنويًّا.
- وقد سجل اليهود في فلسطين المحتلة عام 1998م لدى مكتب العلاقات التجارية الأمريكي (557) براءة اختراع؛ في حين سجل العرب (24) براءة اختراع فقط!!
- وقد انعكس كل هذا على نوعية قوة العمل العربية؛ حيث لا تزيد نسبة الحاصلين على شهادات جامعية في قوة العمل العربية على 6 ٪؛ في حين أنها في دول النمور الآسيوية نحو من 14 ٪. وتصل في فلسطين لدى اليهود إلى 20 ٪.
- هذه الظروف مجتمعة أدت إلى أن يكون الوضع المعرفي والتربوي هزيلاً إذا ما قيس بما لدى الأمم الأخرى.

المجال الثاني هو المجال الاقتصادي المعيشي:

والوضع في هذا المجال كذلك لا يسر؛ إذ إننا نعاني من أمرين خطيرين:

أولهما: أن الوضع المعيشي لأكثر المسلمين آخذ في التدهور.

وثانيهما: ازدياد الفوارق بين الفقراء والأغنياء؛ حيث إن الشريحة الوسطى التي ينبغي أن تشكل قاعدة المجتمع العريضة تتضاءل على نحو مستمر لصالح طبقة قليلة، ولكنها غنية جدًّا، وطبقة واسعة فقيرة جدًّا!

وهذه بعض الأرقام الحديثة التي تشير إلى ذلك:

- يذكر تقرير التنمية البشرية لعام 2000م أنه يوجد في الوطن العربي ما بين (90) إلى (100) مليون فقير؛ أي نحو من 37 ٪ من مجموع العرب. ومن هؤلاء (73) مليونًا على الأقل هم تحت خط الفقر.
- أما نسبة الأغنياء إلى الفقراء، فتعكسها الأرقام التالية: 9.8 ٪ إلى 39 ٪ في مصر. و 6.6 ٪ إلى 46.3 ٪ في المغرب. و 7.6 ٪ إلى 44.4 ٪ في الأردن. وفي حين يتجاوز دخل الفرد في الكويت والإمارات المتحدة عشرين ألف دولار سنويًّا؛ فإنه لا يزيد على (290) دولارًا في كل من السودان واليمن!
- إن عائدات دول منظمة (أوبك) مجتمعة في عام 1998م لا تصل إلى 3 ٪ من الناتج المحلي في أمريكا. وإن ثمن حاسب آلي يعادل دخل مواطن في بنغلادش لمدة ثماني سنوات؛ لكنه يعادل دخل مواطن أمريكي مدة شهر واحد! يمثل اليهود في فلسطين المحتلة 2 ٪ من سكان منطقة الشرق الأوسط إلا أن حصة صادراتهم في عام 1995م بلغت 18 ٪ من مجمل صادرات المنطقة.

ولا أريد أن أسترسل أكثر فأكثر في هذا الشأن خشية مزيد من اليأس والإحباط.

هذه الوضعية الصعبة جعلت الهم الأكبر لدى كثير من المسلمين ليس أن يعلموا أبناءهم تعليمًا جيدًا، ولكن أن يوفروا لهم المسكن والمأكل والملبس.

وحين يكون على المرء أن يختار بين شراء كتاب وجرعة دواء؛ فإنه سيختار قطعًا جرعة الدواء. وحين يُخَيَّر مدير مدرسة بين أن يجهز مدرسته بمعمل وبين أن يؤمِّن مقاعد لطلابها؛ فإنه سيختار قطعًا شراء المقاعد. وهكذا فقد اجتمع علينا عدوَّان لدودان:

أولهما: قصور في فهمنا لتحديات العصر وواجباته وفرصه، بالإضافة إلى عدم الاهتمام بالعلم وعدم إدراك قيمته الحقيقية.

وثانيهما: هو عدم وجود الإمكانات المطلوبة ـفي كثير من الأحيانـ لتوفير وسائل التعليم الجيد!!

وسائل تثقيف منافسة:

كان الناس في البيوت يربون في بيئة محدودة شبه مغلقة. وكان الطفل ينشأ وأمامه نماذج وشواهد محلية أو تاريخية منتزعة من الحضارة الإسلامية. وكانت المدرسة تمارس التربية والتعليم دون أي منافسة تذكر من أي جهة؛ فما تقدمه دائمًا مقبول، أو هو أحسن ما يمكن الحصول عليه. إنها كانت أشبه بـــ (بقالة) وحيدة في قرية صغيرة وليس أمام الناس سوى الشراء منها، وليس في أذهانهم آفاق واسعة لتطويرها، ولا بين أيديهم إمكانات لتجاوزها. وفجأة وإذا بعشرة أسواق (سوبر ماركت) تنتشر في أنحاء القرية، وفي كل سوق أشكال عدة من كل صنف تعرضه البقالة المتواضعة. وقد حار صاحب البقالة في أمره، فهو لا يعرف الأسباب التي جعلت عملاءه التاريخيين ينفضون عنه، كما لا يعرف بالتالي كيف يستعيدهم! هذا ما تواجهه المدرسة اليوم في عالمنا الإسلامي، بل في معظم أنحاء العالم.

ولعلي أوجز هنا مشكلة المدرسة مع وسائل الإعلام في النقاط الآتية:

1ـ هناك خلاف جذري بين طبيعة المدرسة وأهدافها والنظم والتقاليد التي تسيّرها... وبين طبيعة وسائل الإعلام والهواجس التي تسيطر عليها. المدارس في أنحاء العالم أنشئت لتقدم خدمة مجانية للأطفال والفتيان؛ ولذا فإن هاجس الربح لا يسيطر عليها (لا ينطبق هذا بالطبع على المدارس الخاصة)، وهذا يجعلها لا تعبأ كثيرًا باستهواء الطلاب وتلبية رغباتهم. أما وسائل الإعلام التي باتت تجذب الطلاب أكثر فأكثر فإنها ـفي معظمهاـ تابعة لمؤسسات ربحية، وهي ذات تكاليف عالية جدًا، وتحقيقها للربح متوقف على شيء واحد، هو جذب المشاهد والمحافظة عليه بغية اجتذاب الإعلان التجاري الذي يُعد المصدر الأكثر أهمية لدخلها. وهذا وحده كاف لجعلها تتحسس نبض الجمهور وميوله، وتعمل على الانسجام معها، وإن انطوى ذلك على بعض التجاوزات الأخلاقية أو أدى إلى تضييع أوقات الناس فيما لا ينفع. وهذا في أحسن الأحوال؛ حيث إن من وسائل الإعلام ما يخضع لإدارة فاسدة مفسدة ذات أغراض دنيئة.

2ـ تظل المدارس ألصق بالبيئة المحلية، وتظل أقرب إلى الاهتمام بالانسجام مع اهتمامات الأسر في البيوت وتوجهاتها. ويعتقد القائمون عليها أن عليهم أن يكمّلوا دور الأسرة، وأن يرسخوا عين القيم التي تقوم بترسيخها، في حين أن الفضائيات التي تستحوذ الآن على معظم الجمهور يشاهدها المسلم وغير المسلم والصغير والكبير والعالم والجاهل... ولذا فإنه يمكن القول: إنها لا ترتبط بأي بيئة، ولا تعكس قيم أي مجتمع إسلامي على نحو كامل، كما لا تعكس سياسة أي دولة على نحو محدد. وهذا يجعل منها عنصرًا مشوِّشًا على طبيعة العمل الذي تقوم به الأسر والمدارس معًا.

3ـ تنطلق المدارس في كل دولة لتعمل على أساس نظام تربوي واحد، كما أنها ـغالباًـ تدرِّس مناهج موحدة، وتقدم رسالتها وفق أنشطة مبرمجة، كما أنها تعتمد في نجاحها على الجهد الشخصي الذي يبذله الطالب في المذاكرة وحل الواجبات؛ ولذا فإنها تظل في نظر الطالب تشكل مصدرًا للإزعاج، وتقييد الحرية، وتحميل الأعباء، وتوجيه الأوامر، وفرض دراسة مقررات لا تنسجم مع مزاج الطالب دائمًا. وليست وسائل الإعلام كذلك، فهي تملك مرونة كبيرة في إعداد برامجها واختيار المادة التي تقدمها. وهي من خلال تواصلها مع الجمهور تستطيع اكتشاف ما يستهويه، فتعمل على تقديمه دون أن تكلفه أي جهد في متابعته. وهي في الوقت نفسه تثير مشاعر اللذة والمتعة لديه.

وإن مئات الفضائيات ـوالتي تتكاثر على نحو سرطانيـ قد أتاحت خيارات هائلة، ووفرت مواد ترضي كل الأمزجة والأذواق، وتستجيب لكل الاهتمامات؛ ولذا فإن في إمكانها أن تبتلع من أوقات الشباب ساعات طويلة كل يوم. وقد صار في إمكان الإعلام الفضائي من وجه آخر ألا يكترث كثيرًا بثقافة الجمهور؛ لأن الإمكانات الهائلة التي يملكها للوصول إلى كل بيت تساعده على أن يصنع ثقافة الناس، ويطور الذائقة الأدبية والفنية لديهم وفق رؤى القائمين عليه ووفق مصالحهم.

4ـ مما يزيد في التحديات التي تواجهها المدارس في منافسة وسائل الإعلام لها: أن المدارس تهتم بالتاريخ لتتخذ منه وسيلة تربوية، وتهتم بالمستقبل لإعداد الأبناء لخوض غماره؛ ولذا فإنها تبدو شبه معزولة عما يجري في الوقت الحاضر، مع أن الحضارة الغربية المهيمنة تنشر ثقافة (الآنية) والاهتمام الشديد بالواقع.

وسائل الإعلام المختلفة تتجلى دائمًا في الحاضر دون أن تعبأ بالأمس أو الغد إلا بمقدار ما يرتبط بما يجري الآن. وهذه الوضعية جعلت المدارس تبدو

مثالية أو تقليدية أو متبلدة الإحساس، كما جعلت وسائل الإعلام تبدو كأنها بطل الساعة الذي يتحرك في كل اتجاه ليلبي حاجات الناس الملحَّة.

5ـ كانت المدرسة في يوم من الأيام كل شيء، ولم يكن لها ـتقريبًاـ أي بديل. وما زال لها أهميتها في التعليم والتوجيه، لكن كلما قفز العلم قفزة على صعيد البث والاتصال وشبكات المعلومات وأوعيتها؛ فقدت المدرسة شيئًا من وظائفها وشيئًا من بريقها؛ حيث إن (الحقيقة) في أي مادة وفي أي تخصص لم تعد ملك المُعلِّم وحده، ولم يعد أكبر المفتين فيها؛ فقد صار في إمكان الطالب أن يدخل على شبكات المعلومات ليجد حول كل قضية وفي أي منهج أضعاف أضعاف ما في كتابه المدرسي أو ما لدى مُعلِّمه. وتوفر الآن الأقراص المدمجة متعددة الوسائط تعليمًا تطبيقيًا أفضل مما تقدمه المدارس في كثير من الأحيان. ولن تستطيع المدارس مجاراة الوسائل التثقيفية الحديثة في هذا؛ لأن شبكات المعلومات ـمثلاًـ أضحت الوعاء الذي تَصَبُّ فيه خبرات ملايين العقول الفذة.

هذه التحديات لن تنهي الحاجة إلى المدارس، ولكن ستعقِّد مهمتها التربوية، وتجعل تطلعات طلابها أوسع مما يمكن أن توفره إمكاناتها المحدودة.

القصور الذاتي:

مضت سُنَّةُ الله ـجل وعلاـ في خلقه أن تكون المعاناة الأساسية للبشرية في كل شؤونها بسبب ما تصنعها أيديها، فمبدأ {**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**} [**آل عمران**: 165]، واسع التطبيق والتحقق. وكل شكل من أشكال الإصلاح يتجاهل أصحابه مسألة (القصور الذاتي) والوهن الداخلي تكون نتائجه مخيبة للآمال؛ ولذا فإننا نستطيع القول دون حرج: إن الكثير من المشكلات الجوهرية التي تعاني منها مدارسنا؛ لا ينبع من ضغوط الحضارة الغربية، ولا من منافسة وسائل الإعلام، وإنما من ارتباكها حيال نظمها ومشكلاتها الخاصة، وحيال

المتطلبات الجديدة التي أملاها عليها التطور الحضاري. القصور الذاتي للمدارس يأتي تارة من طبيعة تكوينها، وتارة من غموض أهدافها، وتارة من نوعية علاقتها بالأسر ومجالات العمل والنظم السائدة في البلد...

ولعلي أسلط الضوء على بعض هذه المسائل عبر المفردات الآتية:

1ـ تظل الجامعات والمعاهد والمدارس والعاملون فيها معرضة للجمود والتأبي على التغيير والتطوير، وهذا ملموس في كل أنحاء العالم. وعلى الرغم من كثرة البحوث التربوية حول الأسلوب التعليمي ووجوه تطويره؛ فإن في التعليم لدينا هيئات وأوضاعًا ما زالت مستمرة منذ أكثر من ألف سنة على الرغم من تغير كل شيء! وهناك كتب تراثية دُرِّست منذ أكثر من ثمانيمائة سنة، وما زالت تدرس في كثير من الجامعات على الرغم من كثرة الملاحظات الفنية عليها وعدم ملاءمة أسلوبها، ولا تستطيع الوقوف على أي سبب مقنع لذلك! وقد يُجري أحد الأقسام العلمية حوارًا مدة عشر سنوات حول إحلال كتاب مكان كتاب آخر، أو حذف مادة وإضافة مادة أخرى في المقررات، ثم لا ينتهي ذلك الحوار أو الجدل إلا إلى إبقاء كل شيء على حاله!

لا أدري ما التفسير الدقيق لذلك: هل لأن البحوث التربوية تظل حبيسة الأدراج والمكاتب؛ حيث لا يتم نشرها، ولا يستفاد ـبناء على ذلكـ منها؛ أو لأن المدارس أخذت على عاتقها نقل تراث الأمة إلى الأجيال الجديدة، فتخشى أن يؤدي التطوير إلى تضييع شيء من ذلك؛ أو لأن ارتباطها بسوق العمل ضعيف، بناءً عليه فإنها لا تستجيب لحاجاته، ومن ثم فإنها لا تجد أي داعٍ للتطوير والتغيير...؟

كل ما ذكرناه يمكن أن يسهم في جمود المؤسسات التعليمية ـعلى درجات متفاوتةـ ويمكن أن تكون هناك عوامل أخرى. ولا يخلو القطاع التعليمي

ـبالطبعـ ممن يدرك جمود مؤسساته وممن يقترح الحلول، ولكن انعكاس خطط التطوير التربوي على واقع التعليم ضعيف، وأحيانًا لا يكاد يُلْمَس!

2ـ تعمَّقتْ في السنوات العشر الأخيرة في نفوس الفتيان والفتيات أمور كثيرة؛ معظمها سلبي، وهي في مجملها تشكل تحديات للمدرسة التي أخذت على عاتقها إعداد طلابها للحياة الطيبة التي تليق بهم.

ومن الأمور السلبية التي كادت أن تصبح سمة عامة للجيل الجديد: تراجع مستوى المعلومات والمعارف، وتراجع مستوى التشوق والحب الخالص للعلم، إلى جانب تراجع مستوى الإحساس بمعاني الفضيلة والسعي للدار الآخرة، بالإضافة إلى التلبس ببعض مزالق الانحراف ومظاهره لدى كثير من الناشئة. أضف إلى هذا أن البطالة تتفشى على نحو جوهري في صفوف خريجي المدارس الثانوية والجامعات. وقد أخفقت المدارس إخفاقًا ليس بالصغير في تمليك الطلاب رؤية عميقة ومتوازنة لطبيعة العصر الذي نعيش فيه، كما أخفقت في تمليكهم منهجًا جيدًا في البحث العلمي وفي التعامل مع المعرفة، مع أننا في زمان يعطي أهمية متزايدة للرؤية الشاملة، وللتعمق في فهم العلاقات التي تربط بين الأشياء والمجالات المختلفة.

نحن بالطبع لا ننتظر من المدارس أن تغيِّر وجه الحياة، ولا نعدّها مسؤولة عن معالجة كل المشكلات الأخلاقية والاجتماعية، لكننا نعتقد أن هذه المشكلات إذا كانت تتحدى جهات عديدة، فالمؤسسات التعليمية في طليعة تلك الجهات. القصور الذاتي هو الذي يجعل حساسية جامعاتنا ومدارسنا ضعيفة تجاه تلك التحديات، ويجعل استجابتها لها أيضًا ضعيفة. وحين يستمر مثل هذا الشأن فإن ثقة الناس بالمدارس تتراجع، ويكثر الطلاب الذين يغادرونها قبل إنهاء مراحل الدراسة الأساسية.

3ـ لا تستطيع دور العلم أن تؤدي وظيفتها على الوجه المرتجى، ولا تستطيع الصمود أمام المنافسة الضارية لوسائل الإعلام إذا لم تنجح في شيء مهم للغاية؛ وهو جذب الطلاب إليها، وجعلهم يشعرون بالاحترام لها، والإحساس بأهميتها في حياتهم. وحين يحصل شيء من هذا فإن الطلاب يصبحون أكثر استعدادًا للتفاعل مع المضامين التي تحملها المناهج التعليمية، وأكثر حماسة لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها المدرسة. لكن مما يؤسف له أن معظم المدارس أخفقت في هذا الأمر؛ فالملاحظ أن حماسة الطلاب للتعليم في المرحلة الابتدائية أقوى من حماسة طلاب التعليم الثانوي، وإعجابهم بمدارسهم أشد! وذلك قد ينشأ بسبب ضعف الحوار بين الأساتذة والطلاب داخل الفصول. وقد ينشأ بسبب ضبط إيقاع الحركة داخل المدرسة أكثر مما ينبغي، وقد ينشأ بسبب ضيق المباني وانعدام أو ضعف الأنشطة اللامنهجية... وأعتقد أن مجال العمل أمام المدارس والجامعات في هذه المسألة متسع ومتاح؛ لو رغبتْ في عمل شيء لعلاج ذلك.

4ـ من أهم ما يتجلى فيه القصور الذاتي للمدارس هو الجانب الخلقي، فالمدرسة التي تسعى إلى تخريج جيل صالح مطالبة بما لا تطالَب به دائرة حكومية أو شركة تجارية؛ فهي تدرِّس المبادئ والأخلاق الفاضلة ضمن مناهجها. ومن الأمور المحرجة جدًّا أن يرى الطلاب في سلوك المُعلِّمين والإداريين ما يناقض ـأحيانًاـ ما يتم تقريره داخل حجرات الدراسة. إن هناك مدرسين لا يؤدون الفرائض، ولا يلتزمون بالخلق الإسلامي في التعامل مع الطلاب أو في علاقاتهم خارج المدرسة. ومنهم من يفتقر إلى عفة اللسان وحسن الخطاب. ومنهم من يكثر الغياب والتخلف عن الحضور إلى المدرسة من غير عذر مقنع. ومنهم من يحث طلابه على التزود من العلم وهو مُعْرِضٌ عن الكتاب والبحث والدرس. وكثير من المُعلِّمين إذا علموا بقدوم الموجهين التربويين أعدوا دروسهم إعدادًا

مختلفًا عن إعدادهم لها في سائر الأيام. وكثيرًا ما تنسب المدرسة أعمالاً فنية إلى طلاب تعلم أنهم لم يقوموا بها... إلخ، هذه الأمور وما شابهها تسيء إساءة بالغة إلى مكانة المدرسة في نفوس الطلاب، والأخطر من ذلك تدريب الطلاب على الكذب والتزييف والازدواجية؛ مما يدمر القاعدة الأخلاقية لدى الطلاب. وسيكون من المؤسف جدًّا أن تَسْلَم المدارس في البلدان الصناعية الملحدة والمادية من كثير من هذه العيوب في حين يغرق فيها كثير من المدارس لدينا!!

إن حديثنا عن هذه التحديات والنقائص لا يقلل من قيمة العمل الذي تقوم به المدارس، ولكننا نريد أن نلفت الأنظار إلى أن هناك أمورًا مهمة في تنشئة الأجيال؛ إذا لم نوفرها في مدارسنا فلن تتوفر في أي مكان آخر.